

١- الصفات الغيرية الذاتية

١- الوجه:

جاء ذكر الوجه فى التنزيل فى مواضع عديدة منها :

- ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (١) .
- ﴿وَيَقْنَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ (٢) .
- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٣) .

وغير ذلك كثير ، ومن الأخبار ما روى ابن خزيمة عن جابر قال لما نزل قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ (٤) ، قال النبى ، ﷺ ؛ «أعوذ بوجهك» ثم قال : «ويلسكم شيئاً ويذيق بعضكم بأس بعض» قال ، عليه السلام : «هاتان أهون وأيسر» (٥) .

كما روى عن عتبان بن مالك قال : قال رسول الله ، ﷺ ، : «فإن الله قد حرم على النار أن تأكل من قال : لا إله إلا الله ، يتخفى به وجه الله» (٦) . وهناك روايات أخرى جمعها البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) فى «الأسماء والصفات» (٧) ، والرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى «أساس التقديس» (٨) .

قال أهل السنة أن الوجه من الصفات ، «ووجهه من صفاته لا تستقل إلا به ، فإذا بقى وجهه فمن شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ، لان الصفة لا تقوم إلا بوجود ، ولا يكون باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ، ففى بقاء الوجه بقاء ذاته وبقاء صفاته – وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يعرف وجوب وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل ، فخص الوجه بالذكر ؛ لأن فى بقاء الوجه بقاء الحق بصفاته» (٩) .

ومن أهل السنة من لا يرى الوجه صفة فيقول لو أراد الصفة لقال : ويبقى وجه

(٢) سورة الرحمن : آية ٢٧ .

(٤) سورة الانعام : آية ٦٥ .

(١) سورة الروم : آية ٣٨ .

(٣) سورة القصص : آية ٨٨ .

(٥) البخارى ، فتح البارى : ١٣ / ٤٠٠ ، الحديث رقم (٧٤٠٦) .

(٦) البخارى ، فتح البارى : ٣ / ٧٢ ، الحديث رقم (١١٨٦) .

(٧) البيهقى : الأسماء والصفات ؛ ص ٣٨٣ - ٣٩٤ .

(٨) الرازى : أساس التقديس ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٩) القشبرى : لطائف الإشارات ؛ ٣ / ٥٠٨ .

ربك ذى الجلال والإكرام ، ولكنه قال : « ويبقى وجه ربك » أى ويبقى ربك ، ولذلك قال : « ذو الجلال والإكرام » بالرفع ؛ لأنه نعت الوجه (١) .

أما المعتزلة فلهم آراء مختلف تتراوح بين التفسير والتأويل ، فيقول القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) : « المراد به كل شئ هالك إلا ذاته ، أى نفسه ، والوجه بمعنى الذات مشهور فى اللغة ، يقال : وجه هذا الثوب جيد ، أى ذاته جيدة وبعد ؛ فلو كان الامر على ما ذكروه ، أى المشبهة ، للزم أن ينتفى كل شئ منه إلا الوجه ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً » (٢) .

وحقيقة نذكر آراء المعتزلة هنا لإيماننا بأن التعددية الفكرية فى هذا المجال نوع من الشراء ، لا ينبغى تفسيره بأنه انحراف أو خروج عن المألوف أو شذوذ عن جانب الصواب ، وكل من ينظر إلى آراء الفرق فى تعنت لا يفهم روح الإسلام السمحة فى التعددية الفكرية والتى أود أن أشير إليها ، سيما فى قضية التنزيه ، لنرى مدى سعة ورحابة أفق سلفنا الإسلامى ، بما يتناقض فى وجوه مختلفة فى عصرنا الحالى .

المهم اختلفت آراء المعتزلة حول تفسير الوجه فقالوا :

١- فريق بأن الوجه هو هو الله ، ولا فرق بين الذات ، وتتنصف به من صفات ، وهو رأى لأبى الهذيل العلاف .

٢- فريق آخر منهم قال بأن المقصود بالوجه الله ، تعالى ، وكانت مرجعيتهم فى ذلك لغوية ، فقالوا بأن العرب تقيم الوجه مقام الشئ ، فيقول القائل : لولا وجهك لم أفعل ، أى لولا أنت لم أفعل ، وهذا الرأى يتفق مع موقف أكثر أهل السنة ، وهو نفسه رأى أغلب المعتزلة البصريين منهم والبغداديين ، واشتهر عن النظام (٣) منهم .

٣- الفريق الثالث من المعتزلة لم يعقلوا الله وجهاً قبل نزول النص بذلك ، ولذلك أنكروا الصفة مع ورود النص بها ، ولم يضيفوا تفسيراً آخر للنص أو تأويلاً له ، وهو ميل حقيقى لفكرة النفى التام ، بقصد التنزيه عن الجسمية ، وهم العبادية

(١) البغدادى : أصول البغدادى ، ص ١١٠ .

(٢) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول ، ص ٢٢٧ .

(٣) إبراهيم بن سيار بن هانىء النظام ت ٢٣١ هـ من كبار مشايخ المعتزلة وله آراء انفرد بها وفرقة تسمى النظامية .

أصحاب عباد^(١) ، وهو رأى له خلفيته الفلسفية ، أو لنقل ورثوه من جهم وأصحابه (٢) .

ويقول الرازي نافياً الجسمية ، وأن تكون صفة الوجه بمعنى العضو والجراحة من وجوه :

الأول : لو كان الوجه هو العضو للزم أن يفنى جميع الجسد والبدن وأن تفنى العين التي على الوجه ، وأن لا يبقى إلا مجرد الوجه ، وقد التزم بعض حمقى المشبهة ذلك وهو جهل عظيم .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَيَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٣) ظاهره يقتضى وصف الوجه بالجلال والإكرام ؛ ومعلوم أن الموصوف بالجلال والإكرام ، هو الله ، تعالى ، وذلك يقتضى أن يكون الوجه ، كناية عن الذات ، وهو من قبيل التفسير البياني للقرآن الكريم .

الثالث : أما قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (٤) وليس المراد من الوجه ههنا ، هو العضو المخصوص ، فإننا ندرك بالحس ، أن العضو المسمى بالوجه ، غير موجود فى جميع جوانب العالم ؛ وكذلك فلو حصل ذلك العضو فى جميع الجوانب ، لزم حصول الجسم الواحد دفعة واحدة ، فى أمكنة كثيرة ، وذلك لا يقوله عاقل .

الرابع : استحالة حمل قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٥) وقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ (٦) على الظاهر ، لأن وجهه ، تعالى ، على مذهبهم ، قديم أزلى ، والقديم الأزلى لا يراد ؛ لأن الشئ الذى يراد : معناه أنه يراد حصوله ودخوله فى الوجود ، وذلك فى القدم الأزلى ؛ محال .

ثم كيف يعبدون الله ويريدون وجهه وهو غضبان عليهم ؛ والمقصود بإرادة الوجه ، رضى الله عليهم ، وعلى هذا فليس المراد من الآية الجراحة والمراد رضى الله .. وهو تأويل قال به أهل السنة .

(١) عباد سليمان الضميرى العمري ، أبو سهل من مشايخ المعتزلة من الطبقة السابعة .

(٢) انظر الأشعري : المقالات ١٤ / ٢٤٤ .

(٣) سورة الرحمن : آية ٢٧ .

(٤) سورة البقرة : آية ١١٥ .

(٥) سورة الكهف : آية ٢٨ .

(٦) سورة الليل : آية ٢٠ .

الخامس : ويدل على أن الوجه مقصود به رضى الله هو قوله ، ﷺ ؛ « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها ؛ إذا كانت فى قعر بيتها » . فلو كان جارحة لاستوى الحال فى القرب والبعد ، ولم يختلف لو كانت فى بيتها أو فى غيره . وعلى ذلك التأويل بالرضى أصح وأفضل (١) .

وعلى هذا يمكن القول بأن أهل السنة الأوائل كالأشعرى (٢) والباقلانى (٣) والبيهقى (٤) أثبتوا الصفة بلا تأويل ، وأكثر أهل السنة قالوا بأنها كناية عن الذات أو رضى الله ، عز وجل (٥) . فما هى الأدلة التى تدل على أن الوجه كناية عن الذات أو الرضى ؟

أول أهل السنة الوجه بالذات من وجوه ؛ وأعمدوا على العقل واللغة .

١- فالمرئى من الإنسان الوجه ، وبه يتحقق وجوده ويعرف ويتميز ، ولذلك حسن جعل الوجه اسما لكل الذات .. وسادة القوم يسمون وجوه القوم ؛ لأن بهم يتم تصريف الأمور على وجهها .

٢- الرأس هى جماع العقل والحس والفهم والفكر ، ولذلك حسن إطلاق اسم الوجه على كل الذات .

٣- يمتاز بحسن التركيب واللطافة ، وتظهر عليه التأثيرات المختلفة القلبية ، ولذلك حسن إطلاق لفظ الوجه على كل الذات .

أما إن الوجه كناية عن الرضى ، فكل الميول والنوازع النفسية من كره وحب وإرادة ورضا تظهر على الوجه أو تبدأ أعراضها منه ، ولذلك حسن جعل لفظ الوجه كناية عن الرضى ..

وبعد هذا يلاحظ على كلام الرازى وحججه أنه استخدم القياس العقلى ، وهو قياس الغائب على الشاهد ، وهو يجوز فى بعض الأشياء لا كلها ، وإن جاز هنا فهذا لا يعنى الإسراف فى استخدامه (٦) .

(٢) الأشعرى : الإبانة ، ص ٩٧ .

(٤) البيهقى : الأسماء والصفات ٤ ص ٣٨٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(١) الرازى : أساس التقديس ٤ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) الباقلانى التمهيد ٤ ص ٣٠٠ .

(٥) الأمدى : غاية المرام ٤ ص ١٤٠ .

وعلى هذا فقول رسول الله ، ﷺ : «إِنَّكَ لَنْ تَنْفِقَ نَفْقَةً تَبْتغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهِ» (١) فيها تخريجات ثلاث :

١- أولها : على مذهب السلف أنها صفة لله ؛ عز وجل ؛ ثابتة له يقصد بها العمل الصالح ، ولا مجال لأخذها على ظاهرها بمعنى الجارحة .

٢- وثانيها : يقصد بها الذات .

٣- وثالثها : يقصد بها رضى الله .

وكل هذه التاويلات مقبولة وصحيحة ، والخلاف لا يكون إلا مع أصحاب المناهج الضعيفة من الحشوية وأمثالهم .

* * *

٢- العين :

وردت هذه الصفة فى آيات كثيرة منها قوله ؛ تعالى :

﴿ وَتُصَنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٢٩) ﴿ (٢) .

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٣) .

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٤) .

وجاء فى السنة أن رسول الله ، ﷺ ، قام فى الناس فذكر الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : «إِنى لأُنذركموه وما من نبى إلا أنذر قومَه ، لقد أنذر نوح قومَه ، ولكنى سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومَه : إنه أعور ، وإن الله ليس بأعور» (٥) .

وروى الشيخان عن ابن عباس ؛ رضي الله عنهما ؛ أنه ذكر الدجال عند النبى ، ﷺ ، فقال : «إن الله لا يخفى عليكم ؛ إنه ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينيه - وإن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى ، كان عينه عنبة طافية» (٦) . ونفى الإشارة نفى العور وليس إثبات الجارحة .

(١) الحديث ، متفق عليه ؛ رواه البخارى ١٩٦/٣ حديث رقم (١٢٩٥) ، ومسلم ٧٦١١ / رقم (١٦٢٨) بتمامه .

(٢) سورة طه : آية ٣٩ . (٣) سورة الضور : آية ٤٨ .

(٤) سورة هود : آية ٣٧ . (٥) رواه مسلم ١٨ / ٥٨ ، والترمذى ٤٤٧/٤ ح (٢٢٥٤) .

(٦) رواه البخارى ٧٠٩/٧ حديث (٤٤٠٢) ، ومسلم ٢٢٢٧/٢ ، حديث ٢٧٥ .

وللرازي كلام جيد فى فهم هذا الحديث ، فقال بانه مشكل ، لان ظاهره يقتضى أن النبى ، ﷺ ، أظهر الفرق بين الإله ، تعالى ، وبين الدجال بكون الدجال أعور ، والله ليس بأعور وذلك بعيد ، وأعتقد أن الحديث من هذا الوجه يردُّ ، وليس بأقبح من حيث الدلالة والمتن أن يقارن الرسول ، ﷺ ، بين الله والدجال . .

وحتى المشبهة من أهل الحديث ، وأعنى بهم الحشوية ، الذين لا يتفكرون فى دلالات النص سيرفضون هذا الحديث من حيث المعنى لتهافته وضعفه .

يقول الرازى خبر الواحد إذا بلغ هذه الدرجة فى ضعف المعنى ، وجب أن يعتقد أن الكلام كان مسبوقةً بمقدمة ، لو ذكرت لزال هذا الإشكال : «إنه من البعد أن يصدر مثل هذا الكلام من الرسول ، ﷺ ؛ الذى اصطفاه الله ، تعالى ، لرسالته ، وأمره ببيان شريعته» (١) .

وهذا كلام موفق جداً ، وما أكثر الأحاديث التى تحتاج النقد من حيث المعنى / المتن ؛ التى أثارت كثيراً من المشاكل فى مجال العقيدة ، وهذه النصوص لا ينبغى إجراؤها على ظاهرها ؛ وهى قليلة جداً ولا تدعو لفرع أحد من العلماء لحرص الجميع على حديث رسول الله ، ﷺ ، وسلامته من الوضع والكذب .

وأهل السنة يتأولون مثل هذه النصوص ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى حفظنا ورعايتنا ، وقوله : ﴿ وَلِتَصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٣٩) أى بمرأى منى (٢) . واتفق مع أهل السنة والمعتزلة والزيدية فى هذا (٣) .

والحفظ والكلاءة تأويل مناسب للرؤية ، فالله يرى عبده رؤية حفظ وعناية ، وأضاف بعضهم تأويلاً آخر كأوليائنا ، وله ما يؤيده من التأويل من البيعة الصوفية ، وقد يكون المقصود بالأعين فى الآية السابقة أعين الملائكة ، الذين وكلهم الله لحفظ نوح ، عليه السلام ، ومن معه ، وهم الملائكة . الحفظة ؛ أو أعين الماء التى فجرها الله وأنبعها من الأرض فأغرقت من كفر بنوح ودعوته . وبعد فعلام يدل كثرة وجوه التأويل لهذه الآية ؟! .

(٢) القشيري : اللطائف ؛ ١٣٥ / ٢ .

(٤) الجويني : الإرشاد ، ص ١٤٧ .

(١) الرازى : أساس التقديس ؛ ص ١٥٩ .

(٣) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ؛ ص ٢٢٧ .

إن القرآن حملاً أوجه ، ولا مانع من كثرة وجوه التفسير ، طالما كانت صحيحة ولها تخريج . فمن آمن إجمالاً ، ومن تعرض للتفصيل على حق ويمسك بسبب من أسباب النجاة ؛ بإذن الله رب العالمين .

ومن أثبت هذه الصفات كأعضاء ، فثبت لله جارحةً هي عينان أو أذنان أو أنف .. إلخ من المجسمة ، فقد رد عليهم أهل السنة والمعتزلة بما ذكرنا فيه الكفاية ، إلا أننا الآن نستعرض مقالة أحد كبار الزيدية وهو الإمام يحيى (ت ٧٤٩هـ) ، لنؤكد أن الأمة متفقة على مخالفة هؤلاء « الشذمة من المجسمة والحشوية ، وهم طوائف من أهل الإلحاد والزندقة فيقول لهم : « هل تثبتون لله ، تعالى ، هذه الأعضاء وغيرها من سائر الأوصال حتى يكون خلقه تامة كالآدمي ، أو لا تثبتون له إلا ما ورد في القرآن من الأعضاء لا غير !؟

- فإن قالوا بالأول ، فلا دلالة على ذلك لهم ؛ لأن مستندهم في إثباتها ، ليس إلا ما ورد به الشرع ، ولم يرد إلا بما ذكرناه ؛ كالرأس والبطن والظهر ، وغير ذلك من تمام الخلقة وكما لها .

- وإن قالوا بالثاني ؛ وجب الاقتصار على ما ورد به القرآن دون غيره ، وعلى هذا يلزم إثبات الوجه فيه أعين كبيرة ، وشبح فيه أيدي كبيرة ، من غير سائر الأوصال ..! وعلى هذا يكون الله ، تعالى ، على صورة قبيحة لامثال لها في العقول من السماجة ، وقبح المنظر !! فتعالى الله عن نكر هذه المقالة ، وشنع هذه الجهالة^(١) .

* * *

٣- اليبس :

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٣) .

(١) يحيى بن حمزة : الرائق ، ورقة ٣١ ، و ٣١ ظ .

(٢) سورة المائدة : آية ٧٥ .

(٣) سورة المائدة : آية ٦٤ .

وجاء فى الخبر عن أبى هريرة ؛ رضي الله عنه ؛ أن النبى ؛ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : « لما خلق الله ، تعالى ، الخلق كتب بيده على نفسه : إن رحمتى سبقت غضبى » (١) .

أثبت أهل السنة سلفاً هذه الصفة إلا أنهم أجمعوا على أنه غير مقصود منها ظاهراً ، وبدا أهل السنة أصحاب اتجاه مقتصد ومعتدل يواجه المشبهة ويتجلى ذلك عند النظر فى موقف بعض المحدثين كالدارمى وابن خزيمة ، وموقف البيهقى والقشيرى مثلاً . (٢)

وإن كان متقدمو أهل السنة كالأشعرى والباقلانى (٣) رفضوا التأويل فقد مال إليه متأخروهم كالرازى والآمدى ، ففسروها بالقدرة والنعمة (٤) .

وقد كان يرى الأشعرى أن التأويل دعوى بغير دليل ، فلا يصحبها كتاب أو خبر أو قياس أو لغة ، وهى نفسها الأدوات والمصادر التى احتج بها الخلق (٥) .

يقول الرازى : لفظ اليد حقيقة فى هذه الجارحة المخصوصة ، إلا أنه يستعمل على سبيل المجاز ، فى أمور غيرها :

فالأول : إنه يستعمل لفظ اليد فى القدرة ، يقال : يد السلطان فوق يد الرعية . أى : قدرته غالبية على قدرتهم ، والسبب فى حسن هذا المجاز : أن كمال هذا العضو ؛ إنما يظهر بالصفة المسماة القدرة على اليد .

وقد يقال : هذه البلدة فى يد الأمير ، وإن كان الأمير مقطوع اليد . ويقال : فلان فى يده الأمر والنهى ، والحل والعقد . والمراد ما ذكرناه (٦) .

والثانى : إن اليد قد يراد بها النعمة . وإنما حسن هذا المجاز ؛ إطلاق لاسم السبب على المسبب (٧) .

والثالث : قد يذكر لفظ اليد صلة للكلام على سبيل التأكيد ، كقولهم يداك أوكتا ،

(١) متفق عليه ، رواه البخارى : ١٣ / ٤١٥ ، حديث (٤٧٢٢) ، ومسلم ١٧ / ٦٨ حديث (١٤ ، ١٦) .

(٢) الدرامى : فى الرد على المريسى ، ص ٣٨٤ وابن خزيمة : التوحيد ، ص ٥٣ .

(٣) الأشعرى : الريانة ، ص ٩٧ .

(٤) الرازى : الأساس ، ص ١٦٤ ، الباقلى : التمهيد ، ص ٢٩٧ ، والآمدى : غاية المرام ، ص ١٣٩ .

(٥) انظر الأشعرى : الإبانة : ٩٥ - ١٠٦ . (٦) الرازى : أساس التقديس ، ص ١٦٢ .

(٧) المصدر السابق .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ فَكَلِمَاتٌ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) فإن النجوى الرحمة ، ولا يكون لها هذان العضوان المسميان باليدين (٣) .

لقد كان هدف وغاية الخلف والسلف من التنزيه هو حراسة العقيدة من التشبيه والتلبيس والتمويه الذى يستخدمه الحشوية ، فقد ظنوا فى ظاهر الألفاظ جوارح ، فقالوا بإثبات بلا تكييف ! وهو عين التجسيم ولكنهم لا يعلموا .

* * *

٤- اليمين والقبضة :

جاء ذكر اليمين فى القرآن قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

وروى البخارى بسنده إلى أبى هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ؛ قال : « يقبض الله ، تبارك وتعالى ، الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » (٥) .

وفسر القشيرى هذه الآية التى ذكرناها فى كتابه اللطائف بقوله : « ما عرفوه حق معرفته ، وما وصفوه حق وصفه ، وما عظموه حق تعظيمه ، فمن اتصف بتمثيل ، أو جنح إلى تعطيل حاد عن السنة المثلى ، وانحرف عن الطريقة الحسنى ، وصفوا الحق بالأعضاء ، توهموا فى نعته الأجزاء ، فما قدروه حق قدره ، فالخلق فى قبضة قدرته ، والسموات مطويات بيمينه ، ويمينه قدرته ؛ لأنه أقسم أن يفنى السموات ويطويها فهو قادر على ذلك » (٦) .

هكذا صرف أهل السنة ظاهر الآية عن أن تكون القبضة أو اليمين جارحة ، والتفسير العقلى والبيانى للقبضة مما يجوز وهو الأولى ، فظاهر الآية يقتضى أن الأرض قبضة الله ، تعالى ، وذلك محال ، ففى ذلك ذم للحق ، تعالى ، فكيف تكون الأرض

(١) سورة المجادلة : آية ١٢ .
 (٢) سورة الزمر : آية ٦٧ .
 (٣) البخارى : ١٣ / ٤٠٤ ، حديث (٧٤١٢) .
 (٤) سورة الفرقان : آية ٤٨ .
 (٥) القشيرى : اللطائف ٣ / ٢٩١ .
 (٦) القشيرى : اللطائف ٣ / ٢٩١ .

بأحوالها ونجاساتها قبضته ، تعالى ؛ وفي ذلك قدح في الذات بين ، كما أنه تقليل وتصغير لشأنه ، تعالى ؛ لمجرد كون قبضته هي الأرض .

وإذا كانت الأرض قبضته ، تعالى ، وهي مخلوقة لزم من ذلك كون قبضته مخلوقة ، وهو محال ؛ زد على ذلك ما يطرأ على الأرض من الزيادة والنقصان والتغير والاجتماع والافتراق والتعمير والتخريب ، فهل يجوز أن يكون الخالق كذلك ؟ . . . إن أول من يرفض ذلك هم أولئك أصحاب الظاهر ولا شك في ذلك ، فإن لم تأبه عقولهم أباه ذوقهم وفطرتهم . إذا تأويل وتفسير وتوضيح هذا اللفظ وصرفه عن الظاهر غير المقصود ضرورة تفتضيها مبادئ العقيدة وما ينبغى وصف الله به .

* والتفسير الآخر هو التفسير البياني ، فإذا كان الظاهر من هذه الآية يذكر ويراد به احتواء الأنامل على الشيء ، فيمكن تفسيرها على أنها مجاز ، وهو مشهور ، فقد يذكر ويراد به كون الشيء في قدرته وفي تصرفه وملكه ، وهو ما ارتضاه أهل السنة ، وذكرناه من قبل في تفسير الآية ، فيقال : هذه البلدة في قبضة السلطان ، والمراد ملكه وقدرته وتصرفه .

يذكر أهل السنة أن تأويل اليد أو القبضة أو اليمين لا ينفي كونها صفات ثابتة لله بالخبر والنص الصريح ، فتأويلها وفق السياق اللغوي والتفسير البياني ، وحسب دلالة المعاني هو أيضا مما يعد إثبات لها .

وكذلك يقال في اليمين أنها تعنى القوة والقدرة من باب المجاز ، وقد وردت في أكثر من خبر ، من ذلك ما رواه ابن خزيمة ، في كتابه « التوحيد وإثبات صفات الرب » ، وهو مشحون بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ، عن النبي ، وآله وسلم قال : « إن أحدكم يتصدق بالتمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، فيجعلها في يده اليمين ، ثم يرببها كما يربى أحدكم فلوله وفصيله حتى يصير مثل أحد » (٣) .

يسمى العرب الجانب الأيمن باليمين ، لكونه أقوى الجانبين ، وتسمى الحلف باليمين ؛ لأنه يقوى عزم الإنسان على الفعل أو الترك قال الشاعر :

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ١٤ / ١٢١ .

(٤) سورة الحاقة : آية ٤٥ .

(١) الرازي : أساس التقديس ؛ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٣) الحديث متفق عليه ، في البخاري ومسلم .

إذا ما رايةٌ رفعتٌ لمجدٍ تَلَقَّها عرابَةٌ باليمينِ

إن تفسير قوله تعالى : ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ (٤) قد يكون يمين الماخوذ به ، يقال : أخذت بيمين الصبي وذهبت به إلى المكتب ، وإن قصد الآخذ ، فهو على المجاز ، ويعنى به القوة والقدرة وعلى ذلك تخرج الأخبار الواردة في هذا الباب (٥) . ومع احتمال اللفظ لوجوه التأويل فلا حرج من ذلك ، والله أعلم .

* * *

٥- الأصابع :

لم ترد هذه اللفظة في كتاب الله ، ولكنها جاءت في أكثر من خير ، منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال : «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (١) .

ويذهب أهل السنة إلى أنها كناية عن القدرة أو النعم أو الملك ، أو أصبع بعض خلقه ، والشاهد على ذلك أنه لم يذكر في الخبر أصبعه ، بل جاء مطلقاً منكرأ ، ثم إن تأويلها بالنعمة يجرى على نسق تأويل اليد بالنعمة من قبل : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يرفع ويضع وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحد من نعم النفع ، وإن خلا عن نعم الدفع (٢) .

ويعزز صحة التفسير بان اللفظ يعود إلى التوفيق أو الخذلان قول النبي ، ﷺ : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» . (٣) لأن الإزاعة والإقامة مما يجريان على حسب القدرة ونفاذ المشيئة ، كما إنه خص القلوب بالذكر ، لأنها معظم ما في الأبدان وبفسادها يفسد الجميع ، وهي محل الخواطر والإرادة والعزوم والنيات ، ومنها مقدمات الأفعال من ميول ونوازع ، والجوارح تابعة لها في الحركات والسكنات ، ومثل ، تعالى ، قدرته القديمة بالأصابع لنعقل ذلك ، ولا يكون المرء أقدر على شيء منه على ما بين أصبعيه ، وجاءت اللفظة مثناة مع أن القدرة واحدة . لأنه أجرى ذلك على المعهود من لفظ المثل (٤) .

(١) مسلم في صحيحه ١٦٤ / ٢٠٤ حديث رقم (٧٦٥٤) ، وغيره من كتب الحديث .

(٢) القشيري : اللطائف ١٤ / ٤٣٧ . (٣) رواه الترمذى ٥٠٣ / ٥٠٣ حديث (٣٥٢٢) .

(٤) انظر ابن فورك : مشكل الحديث ٤ ص ٢٥٥ .

يقابل هذا التفسير المعقول البياني ما يذكره ابن الجوزي عن بعض متأخري الحنابلة ؛ حيث يقول أحدهم : « وغير ممتنع حمل الخبر على ظاهره في إثبات الأصابع صفات راجعة إلى الذات ؛ لانا لا نثبت أصابع هي جارحة ولا أبعاض ! .. فماذا رد عليه ابن الجوزي؟ قال :

« وهذا كلام مخبط ؛ لأنه إما أن يثبت جوارح وإما أن يتأولها ، وأما حملها على ظاهرها ، فظاهرها الجوارح » .. ويعلق على قوله بأنها لا جارحة ولا أبعاض .. بقوله : « ليست أبعاضاً ! .. فهذا كلام قائم قاعد ، ويضيع الخطاب لمن يقول هذا » (١) .

لقد أثبت السلف والخلف هذه الألفاظ إيماناً وتسليماً ، ثم أولوها على ما يقتضى السياق والمعنى اللغوي في ضوء إثبات الكمالات للذات الإلهية ، وتنزيهاً لها من كل نقص أو عيب (٢) ، أما التفسير بالجارحة والعضو والجسم فهو ما لا يليق بالله تعالى .

لقد أبلى علماء أهل السنة بلاء حسناً في الدفاع عن العقيدة كابن فورك (ت ٤٠٦ هـ) ، والبيهقي والقشيري والغزالي والرازي والآمدي ، فقد واجهوا تياراً عنيداً من المشبهة تسبب في وقوع الفتن والحن المتعاقبة في تاريخنا الإسلامي .

لقد جاء الإسلام ليحارب التصورات المادية والأرضية للإلهية ، ويرتقى بحس وفهم الإنسان ، ويثبت أركان التوحيد بينابيعه الصافية النقية ، ولكن المجسمة أشاعوا بين العوام عقيدة هي أقرب إلى الصنمية وتلقفها العوام ؛ لأنها قريبة من فهمهم وترسخت في عقولهم ، وضربوا بأسس العقيدة في القرآن وما ينبغى ويليق بالذات الحائط ، وجعلوا ما جاء بضرورة صرف المعاني الموهمة للتشبيه والتجسيم في القرآن إلي ما يليق بالله العزيز (٣) .

وفي هذا السياق ينبغى الإشادة بجهد سيدنا الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) في سبيل الدين ، فقد حاولوا أن ينتزعوا منه اعترافاً بأن القرآن مخلوق فرفض أن يقول على الله ما لم يقل في كتابه ، وجعل من كتاب الله مرجعيته للعقيدة حسب ما رأى

(٢) انظر الرازي : أساس التقديس ؛ ص ١٧٦ .

(١) ابن الجوزي : دفع شبه التشبيه ؛ ص ٤٨ .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفتري ؛ ص ٣٠٨ .

.. أما ما دخل في مذهبه من مفساد وتجسيم فهو منها براء ، يقول أبو محمد التميمي الحنبلي الكبير والمشهور في الاتجاه الحنبلي المشبه: «لقد شان المذهب شيئاً قبيحاً ، لا يغسل إلى يوم القيامة» . يقصد ما تحمله تيار عاصم بن خشيش والملطي ، وغيرهما كأبي عبد الله بن حامد ، وأبي يعلى ، وابن الزاغوني (١) .

* * *

٦- الساق:

قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ (٢) . وقال ، ﷺ : «يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة . فيذهب ليسجد له ، فيعود على ظهره طباقاً» (٣) .

وقد اضيفت اللفظة في الخبر ، ولم تضاف في الآية ، وفسرها ابن عباس بالشدة ، فقال يوم يكشف عن شدة ، وهو من كلام العرب فيقولون قامت الحرب على ساق ، أي على شدة (٤) .

كما فسروها بالنور العظيم أو النفس أو ساق بعض الملائكة .

وقد أول هذه اللفظة جمهور كبيرة من العلماء فوجد ابن حزم الظاهري يتخلى عن حذره والترامه ويؤلها بالشدة وهول الموقف (٥) ، وكذلك قالت المعتزلة الساق تأول بالشدة (٦) .

ولا حجة للمجسمة في الآية ولا الخبر ؛ لأن الآية لم تذكر أن الله هو الذى يكشف عن ساقه فجاءت بلفظ ما لم يسم فاعله . كما أن إثبات ساق واحدة نقص في البشر وهى كذلك فى حق الله ، ثم لم يكشف الله عن ساقه وما يحذر ؟ وفى الدنيا لا يكون إلا من تخوف محذور أو اتقاء مخاضة أو طين !..

(٢) سورة القلم : آية ٤٢ .

(١) انظر ابن الجوزى : دفع شبه التشبيه ؛ ص ٧ ، ٨ ، ١٠ .

(٣) الحديث رواه البخارى ٨ / ٥٣١ ، حديث رقم ٤٩١٩ عن ابي سعيد الخدرى .

(٤) الرازى : اساس التقديس ، ص ١٨٣ ، وابن قتيبة : تاويل مشكل القرآن ، ص ١٣٧ - تحقيق السيد احمد صقر ، ط الاولى . القاهرة ١٩٧٣ م .

(٦) الفاضى عبد الجبار : شرح الاصول ؛ ص ٣٢٩ .

(٥) ابن حزم : الفصل ، ٢ / ٣٥٢ .

(٧) البيهقى : الاسماء والصفات ؛ ص ٤٣٨ .

إن المشبهة وأدعياء الظاهر يسوقون مناظرهم إلى كلام عظيم من أجل التفهيم والتعليم فهل يفهمون أو يعلمون أو يكون لديهم استعداد لذلك؟ .. هذا ما لم يحدث من قبل .

القصد إن صرف هذه الآية إلى التفسير البياني ، وهى كناية عن الشدة والهول يوم القيامة هو الأولى والصحيح ، وقد أضافه الله إلى نفسه فى الخير ؛ لأنها شدة لا يقدر عليها إلا الله تعالى (١) .

٧-القدم والرجل:

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ، ﷺ : «لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط . وعزتك ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة» (٢) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ، ﷺ ؛ «تحتاج الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وجرهم ، قال الله ، عز وجل ، للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشياء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشياء من عبادى ؛ ولكل منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلى حتى يضع الله فيها رجله ، فتقول : قط قط ، فهالك تمتلى ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ، عز وجل ؛ ينشئ لها خلقاً» (٣) .

وقد روى هذه الأحاديث بعض الرواة بالإضافة إلى رب العالمين «رجله .. قدمه» ومنهم من تهيب ذلك فلم يضيف .. ويعلق على ذلك أبو سليمان الخطابى ، رحمه الله ، فيقول : فيشبه أن يكون من ذكر القدم والرجل ، أو ترك بالإضافة إنما تركها تهيباً لها وطلباً للسلامة من خطأ التأويل فيها» (٤) .

(٢) متفق عليه .

(١) انظر ابن الجوزى : دفع شبه التشبيه ٤، ص ٧، ٨ - ١٠ .

(٤) البيهقى : الاسماء والصفات ، ص ٤٤٣ .

(٣) متفق عليه .

فقد استشعر المحدثون خطر هذه الأحاديث ومدى ما تتركه فى العقيدة من آثار سيئة لو تهاون الرواة أو تجاوزوا فى الزيادة أو النقصان من الدلالة .

وكان أبو عبيد وهو أحد أئمة أهل العلم يقول : نحن نروى هذه الأحاديث ، ولا نريغ لها المعانى .

قال أبو سليمان : ونحن أحرى بأن لا نتقدم فيما تاخر عنه ، هو أكثر علماً وأقدم زماناً وسناً ، ولكن الزمان الذى نحن فيه قد صار أهله حزينين منكراً لما يروى من نوع هذه الأحاديث رأساً ، ومكذب به أصلاً ، وفى ذلك تكذيب العلماء الذين رروا هذه الأحاديث ، وهم أئمة الدين ونقله السنن والواسطة بيننا وبين رسول الله ، ﷺ .

* والطائفة الأخرى مسلمة للرواية فيها ذاهبة فى تحقيق الظاهر منها مذهباً ، يكاد يفضى بهم إلى القول بالتشبيه . ونحن نرغب عن الأمرين معا ، ولا نرضى بواحد منهما مذهباً ، فيحق علينا أن نطلب لما يرد من هذه الأحاديث ، إذا صحت من طريق النقل والسند ، تأويلاً يخرج على معانى أصول الدين ، ومذاهب العلماء ولا نبطل الرواية فيها أصلاً ، إذا كانت طرفها مرضية ونقلتها عدولاً^(١) .

والحقيقة لقد أفضت هذه الروايات إلى التشبيه ، يقول ابن الزاغونى : «إنما وضع قدمه فى النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لا احترق ا وسفه ابن الجوزى كلامه فقال : وهذا تبعيض ، وهو من أقبح الاعتقادات ، وهو يجاهر صراحة بالجسمية ، ثم إن هذا الكلام يتعارض مع قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا﴾^(٢) فأى القولين صدق وحق ، ما يرويه الرواة المشبهة أم كلام رب العالمين ؟ وكيف جرؤا على هذا فظنوا بالخالف ورودها ؟ تعالى الله عن تجاهل المجسمة.^(٣)

أما ابن خزيمة فقد قسم كتابه «التوحيد» إلى أبواب فقال : باب إثبات اليد ، باب إمساك السموات على أصابعه ، باب إثبات الرجل ، وإن رغمت المعتزلة .

(٢) سورة الانبياء : آية ٩٩ .

(١) البيهقى : السابق ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٣) انظر ابن الجوزى : مصدر سابق ، ص ٤٠ .

ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ بِهَا؟ ﴾ (١)
فاعلمنا أن ما لا يد له ولا رجل كالانعام (٢) !

قال ابن عقيل : تعالى الله أن تكون له صفة تشغل الامكنة ، وليس الحق ، تعالى ،
بذى أجزاء وأبعض فيعالج بها ، ثم إنه ليس يعمل في النار أمره وتكوينه حتى
يستعين بشئ من ذاته ويعالجها بصفة من صفاته ، وهو القائل : ﴿ .. كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا ﴾ (٣) . فما أسخف هذا الاعتقاد ، وأبعده عن مكنون الاملاك والافلاك . (٤)

وقد أطلنا ، ولكن لا بأس من الاستطراد من أجل إيضاح هذه القضية بما تحمله من
أهمية كبيرة في عقائد المسلمين في ربهم .

يقول ابن فورك ؛ في تأويل الخبر الذي ذكرناه : إنه يحتمل أن يكون المعنى فيه ما
يضعه الله في النار من الكفار ، وهم الخلق الكثيرون فتمتلئ جهنم بهم ، وأنه سمي
ذلك رجلا على عادة العرب في تسمية الجماعة رجلا ، لأنهم يقولون للجراد الكثير
رجل ، ويقولون : جاءت رجل من الجراد ، يصفون بذلك جمعاً كثيراً .. ويحتمل أن
يكون رسول الله ، ﷺ ، أراد بالرجل ها هنا الخلق الكثير ، وأضافه إلى الله ، تعالى ،
على طريق الملك والفعل (٥) .

أما الجويني فيقول في حديث البخاري : وللتأويل أوسع مجال فيه ، فيمكن أن
يحمل الجبار على متجبر من العباد ، وهو في معلوم الله من أعتى العتاة ، وقد ألهمت
النار ترقبه ، فهي لا تزال تستزيد حتى يستقر قدم ذلك الجبار فيها ، فتقول النار عند
ذلك : قَطِ قَطِ (٦) .

أما من جعل لله قدماً ورجلاً بمعنى الجزء ، فقد جعل الله مثل خلقه وذلك كفر
وكذب ، فكل شئ يرد النار فهو مخلوق ليس إليه .

إن هذه الأخبار لا تصمد للنقد العقلي ولا عند عرضها على منهج العقيدة ،
ولذلك لا غرابة أن وجدنا عالماً كالرازي يرفض هذه الأخبار وينكرها لضعفها الشديد

(٢) ابن خزيمة : التوحيد ٤ ص ١٥ .

(٤) ابن الجوزي : مصدر سابق ٤ ص ٤٠ .

(٦) الجويني : الإرشاد ، ص ١٥٢ .

(١) سورة الاعراف : آية ١٩٥ .

(٣) سورة الانبياء : آية ٦٩ .

(٥) ابن فورك : مشكل الحديث وبيانه ، ص ٤٦٧ .

من حيث المعنى ، وتناقضها مع منهج القرآن التوحيدى النقى ، والكثير من هذه الأحاديث ضعيف سنداً وامتناً ، وهذا الرأى صحيح إن اقتصد فى الإنكار والرفض ، وعموماً الرازى من كبار العلماء الذين أدركوا قضية التنزيه فى الصفات ، وخطورة هذه الأخبار على العقيدة ، فقد حملت هذه الأخبار تشنيعاً على العقيدة ففيها كلام على لسان الرسول قيل كذباً ، يهدم الدين ، فكيف يتصور المخاصمة والحجاج بين الجنة والنار ، وهما جمادان ، أو يسأل الله النار فلا تمتلأ ، وفى ذلك عصيانها له ، إلا بوضعه قدمه فيها !.. وهذا كله حشو وتجسيم لا يليق بذات البارى ، كما أن وضعه ، تعالى ، قدمه فيها لا يعد جواباً لها على سؤالها . وربما اعتقد أن القدم هنا فداء أو لإسكات غضبها ، وقد جاء بالنص (١) ما يكذب هذا الخبر ففيه أن جهنم تملأ من المكلفين لا يقدم الله عز وجل !.. (٢) . وما الفرق بين هذا الكلام ودعوى النصارى فى الفداء والصلب ؟!..

٨- الجنب:

قال تعالى : ﴿ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ (٣) أى طاعته وأمره ؛ لأن التفريط لا يقع إلا فى ذاته . وأما الجنب المعهود من ذى الجوارح فلا يقع فيه تفريط (٤) .

وحكى البيهقى عن مجاهد تفسيره للآية يعنى : ما ضيعت من أمر الله (٥) ، كما قال ابن حزم : معناه فيما يقصد به إلى الله ، عز وجل ، وفى جنب عبادته (٦) .

وكان الجوينى موفقاً إذ عد الجنب من الجناب ، فكان تفسيرها لغوياً غاية فى الوضوح : « ولا يلتبس معنى هذه الآية إلا على غر غبى . إذ لا يتجه فى انتظام الكلام حمل الجنب على تقدير الجارحة ، مع ذكر التفريط ، فلا وجه إلا حمل الجنب على جهات أمر الله ، تعالى ، وماخذها . »

(٢) انظر الرازى : مصدر سابق ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٤) ابن الجوزى : دفع شبه التشبيه ١ ص ٢٥ .

(٦) ابن حزم : الفصل ٢١ / ٢٤٩ .

(١) انظر سورة ص / ٨٥ ، وهو د / ١١٩ .

(٣) سورة الزمر : آية ٥٦ .

(٥) البيهقى : الأسماء والصفات ٤ ص ٤٥٥ .

ويفسرها أيضا بالرعاية : يقال فلان محترس برعاية فلان ، لائذ إلى جنبه ، عائذ بجنبه . وليس ما ذكرنا من مضارب التأويل ، بل على قطع نعلم بطلان حمل الجنب الذى أضيف إليه التفريط على الجارحة (١) .

وهكذا نجد الاتجاه العام لدى علماء أهل السنة وغيرهم بعيد كل البعد عن تصور هذه اللفظة صفة للخالق . فضلا عن تصورها جارحة . إلا أن ذلك لم يكن رأى ابن حامد ، وهو من متأخري الحنابلة الذين مالوا للتشبيه ، حيث يقول : «نؤمن بأن الله ، سبحانه وتعالى ، جنباً بهذه الآية !.. ويعلق ابن الجوزى على هذه المقالة الجانحة عن الصواب بقوله : فواعجباً من عدم العقول ، إذا لم يتهياً التفريط فى جنب مخلوق فكيف يتهياً فى صفة الخالق ، جل جلاله !؟.. ودلالات السياق اللغوى تؤيد ذلك ، قال الشاعر :

خليلى كفا ؛ واذكرا الله فى جنبى

أى فى أمرى (٢) .

ويأتى التفسير البيانى ليزيد هذا المعنى جمالاً ويكسبه بهاء ، فيشير الرازى إلى أنها أى الجنب تعنى الوحى ، وهو من المجاز اللغوى ، فيمسى جنب الشئ جنباً لمجانبته غيره . وكذلك من عمل عملاً صالحاً فقد جانب غيره . ومن عمل لوجه الله فقد جانب بعمل غير الله ، ومن هنا صح القول بأنه أتى ذلك العمل فى جنب الله . وهذه من الاستعارة المعروفة المعتادة فى العرف (٣) .

ويذكر الكوثرى فى تعليقه رأى الزمخشرى فى «الكشاف» فيقول : والجنب الجانب ، يقال والجانب . ثم قالوا : فرط فى جنبه وفى جانبه ، يريدون فى حقه ، قال سابق البربرى :

أما تتقين الله فى جنب وامق .. له كبد حرى عليك تقطع (٤) .

وقال السيد محمود الألوسى فى تفسيره «روح المعانى» :

(١) الجوينى : الإرشاد ٤ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) ابن الجوزى : مصدر سابق ، ص ٢٥ .

(٣) الرازى : أساس التقديس ٤ ص ١٨١ .

(٤) الزمخشرى : الكشاف ١٤ / ١٠٦ .

وبالجملة لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه ، عز وجل ، من الجنب (١)
 بالمعنى الحقيقي ، ولم أقف على عد أحد من السلف إياه من الصفات السمعية .
 وقال القاسمي في تفسيره: أي في جانب أمره ونهيه إذ لم أتبع أحسن ما أنزل (٢).

* * *

٩- النفس:

قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (٥) .

وروى أبو هريرة عن النبي ، ﷺ ، أنه قال : «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، وهو يكتب على نفسه ، وهو موضوع عنده على العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي» (٦) .

وقد أول أهل السنة النفس بمعاني مختلفة حسب السياق اللغوي ، فقالوا في الآية الأولى ، كتب على نفسه : أي على ذاته ، وكذلك الآية الثانية والثالثة ، أما قوله تعالى ﴿ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ (٧) .

فهى بمعنى العلم ، ودالة على إحاطة علمه لكل معلوم فى عالم الغيب والشهادة على السواء (٨) .

وللنفس فى القرآن الكريم معانٍ متعددة وحسب ما جاء فى اللغة :

١- البدن : قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (٩) .

٢- الدم : يقال هذا حيوان له نفس سائله . أى : دم سائل .

(١) الألوسى : روح المعاني .

(٢) القاسمي : تفسيره ، والقرطبي ١٥ / ٢٧١ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران : آية ٣٠ .

(٥) سورة طه : آية ٤١ .

(٦) متفق عليه رواه البخارى ١٣ / ٣٩٥ حديث رقم (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١) .

(٧) سورة المائدة : آية ١١٦ .

(٨) القشيري : اللطائف ١٤ / ٤٥٧ .

(٩) سورة آل عمران : آية ١٨٥ .

٣- الروح : ﴿اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (١) .

٤- العقل : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (٢) .

٥- ذات الشيء وعينه : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (٣) .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن لفظ النفس في حق الله ، تعالى ، هي ذاته وحقيقته .

وفى قوله تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١) زيادة تأكيد للمبالغة في تكريم

المضاف ورفع شأنه ، وهو معروف في اللغة .

وفى تفسير قوله : ﷺ : « كتب كتاباً على نفسه » فالمراد به كتب كتابا ، وأوجب

العمل به ، والمراد من قوله : « على نفسه » ؛ التأكيد والمبالغة في الوجوب واللزوم .

فثبت أن المراد بالنفس في هذه المواضع : هو الذات ، وأن الغرض من ذكر هذا اللفظ :

المبالغة والتأكيد (٥) .

ولابن فورك كلام موفق في إثبات الصفات على طريقة السلف فيقول : « الخبير إذا

ورد مقيداً بذكر أشياء مخصوصة مضافة إلى الله ، تعالى ، فلا يجوز أن يتعدى ما ورد

به الخبير ، لأجل أن إطلاق هذه الإضافة والصفة الخبير ، ولا مجال للعقل فيه ، فكذلك

القول في تقييده في الموضع الذي قيد فيه لا طريق له غير الخبير (٦) . وعلى هذا فاهل

السنة يثبتون الصفات الواردة في النص والخبير الصحيح ، غير أنهم يفارقون المشبهة

في فهم المراد منها على معانيها الصحيحة ، حسب ما يقتضى المعنى والسياق ومراد

الله منها ، فى إطار المنهج القرآنى فى فهم العقيدة .

(٢) سورة الأنعام : آية ٦٠ .

(٤) سورة طه : آية ٤١ .

(٦) ابن فورك : مشكل الحديث ؛ ص ٣٩٦ .

(١) سورة الزمر : آية ٤٢ .

(٣) سورة البقرة : آية ٩ .

(٥) الرازى : أساس التقديس ؛ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

ب- الصفات الخيرية الفعلية

نقصد بها الاستواء والعلو والمعية والإتيان والمجئ والقرب والبعد وما إلى ذلك ، وقد ورد ذكرها فى النص وكثير من الأخبار ؛فما رأى أهل السنة والجماعة فى هذه الصفات ؟

١-الاستواء؛

قال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ﴿ (١) .

وقال : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (٢) .

وجاء فى الخبر عن رسول الله ، ﷺ ، قوله : «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتى سبقت غضبى» (٣) .

وجمهور أهل السنة يشبتون الاستواء صفة لله ، عز وجل ، بما جاء من الكتاب والسنة الشريفة ، ولا ينكرون شيئاً من الاستواء والعلو ، قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٤) .

ويثبت الأشعري الاستواء صفة لله ، عز وجل ، بلا تاويل ، وقال : إنه فعل خص به الله العرش ، واستدل بقوله تعالى : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿ (٥) وبالغ فى التعيين ، فقال : هو على العرش الذى فى السموات ، ولذلك يرفع المسلمون أيديهم عند الدعاء (٦) . وهو كلام غريب على رجل عاش أربعين عاماً من عمره فى المدرسة العقلية وفى أحضان الفكر المعتزلى ، وربما قصد بذلك إرضاء المحدثين فى عصره والدليل على ذلك ، مخالفة منهجه فى الإبانة منهجه فى اللمع ، والذى أوضح فيه جانباً كبيراً من فكره العقلى فى النظر والاستدلال .

وجاء من بعده أبو بكر الباقلانى فاثبت الاستواء صفة لله على طريقة السلف،

(١) سورة طه : آية ٥ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٥٩ .

(٣) رواه البخارى .

(٤) سورة فاطر : آية ١٠ .

(٥) سورة الملك : آية ١٦ .

(٦) الأشعري : الإبانة ، ص ٨ .

ولم يؤلها بشئ^(١). ومثل بذلك أقصى حدود الالتزام السلفى فى المدرسة الأشعرية .

غير أن السلف لم يقصد من الاستواء ظاهره ، وهو الجلوس وتعيين الجهة ، ومن المؤكد أنهم كانوا يفهمونه بمعناه اللغوى ، الذى ورد فى اللغة ودلالاتها المختلفة ، ففهموا منه الاستيلاء والتمكن والسلطان والملك^(٢) .

وقبل الحديث عن أدلة أهل السنة فى تفسير الصفة وبيان معناها ، نود الإشارة إلى أن المعتزلة اتفقوا مع أهل السنة فى أن معنى الاستواء يؤل به الاستيلاء لقول الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسرٍ وكاسرٍ
وقول الآخر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مرق
فالحمد للمهيمن الخلاق

وقال العرب : ثل عرش بنى فلان ، أى زال ملكهم ، قال الشاعر :

إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم وأودت كما أودت إياد وحمير^(٣)

أما المشبهة والحشوية فقد أثبتوا الصفة على طريقة السلف ، ثم عادوا فقالوا : إنها صفة على الحقيقة لا على المجاز ، فجمعوا بين المتناقضين والمتعارضين ، وخالفوا النقل والعقل جميعاً ، إذ كيف تكون صفة الاستواء على حقيقتها استقراراً وعلواً وجهة ومكانية بلا تكيف ولا تمثيل !! .

فعينوا الله جهة فوق ، ومكان العرش ، ولكنها بزعمهم فوقية تليق به ، ويثبتون التحيز والحد : « ولكنه حد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته ، والجهة إنما هو بحسب الكون وأسفله »^(٤) . وكل ذلك ضرب من الجهل والخلط وخروج عن المعقول والمنقول .

(١) الباقلانى : الإنصاف ، ص ٣٦ .

(٢) البغدادي : أصول الدين ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) القاضي عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٤) انظر الواسطى الشافعى : رسالة النصيحة فى صفات الرب جل وعلا ، ص ٣٥ ، تحقيق : زهير الشاويش ج١ ، المكتب الإسلامى ١٩٨٥ م .

أما الدرامى فقال ما تنكره عقائد التوحيد ، ولا أدرى كيف فاه بهذا الكلام ! ..
فقد قال بأن الملائكة تحمل العرش ، ويقصد به العرش الذى يجلس عليه الله ! .. وفوقه
الجبار فى عزته وبهائه ، وقد ضعفوا عن حمله واستكانوا وحشوا على ركبهم حتى
لقنوا « لا حول ولا قوة إلا بالله » استقلوا به بقدره الله وإرادته (١) ! .. هذا هو تصور
الدارمى فى ربه جثة على عرش فى جهة تنوء الملائكة بحمله ، وهو لا يخرج عن
تصور اليهود فى ربهم : « فالله بكماله فوق عرشه فوق سمواته » (٢) هكذا ! .. ولا
أدري كيف جاز فى عقله أن يقول ذلك فى عقائد المسلمين القائم على التوحيد
وصفاء العقيدة !؟ ..

لقد شحن المشبهة كتبهم بكثير من الأحاديث ، التى تحتاج إلى النظر ، وكثير منها
لا يصح وهو محض اسرائيليات ، وكأنك تقرأ فى التورة عن بنى إسرائيل حين حرفوا
كتاب ربهم وعبدوا العجل افتراء .

وينقسم أصحاب الحديث فيما ورد به الكتاب والسنة إلى قسمين :

١- منهم من قبله وآمن به ولم يؤوله ، ووكل علمه إلى الله ، ونفى الكيفية
والتشبيه عنه . وأولئك أصحاب السلامة .

٢- ومنهم من قبله وآمن به وحمله على وجه يصح استعماله فى اللغة ولا يناقض
التوحيد ، وهم أغلب جمهور أهل السنة (٣) .

وكان الليث بن سعد فقيه أهل مصر يقول عن حملة هذه الصفات : « أمرؤها كما
جاءت بلا كيفية » .

وكان سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) يقول : « كل ما وصف الله به نفسه فى
كتابه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه » .

ويعلق البيهقى على هذا الكلام النفيس : وإنما أراد به ، والله أعلم ، فيما تفسيره
يؤدى إلي تكليف ، وتكليفه يقتضى تلاوته والسكوت عليه (٤)

(١) الدارمى : فى نقضه للمريسي ج ٢ / ٤٤٣ . (٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٨ فى رده على الجهمية .

(٣) انظر قضية الجهة والاستواء عند القاسم بن إبراهيم فى كتابه المسترشد بتحقيقنا .

(٤) البيهقى : الاعتقاد والهداية ، تحقيق أحمد عصام الكاتب ، ص ١١٧ ، ١١٨ دار الآفاق الجديدة بيروت . ط أولى

. م ١٩٨١

وخرج الجويني آيات الاستواء والعلو على الإحاطة والعلم والاستواء والقهر ، وأشار إلى نتائج عدم التفسير لها بقوله : وقد يؤدي عدم التأويل إلى وقوع المخطور في الاعتقاد ، ويجر إلى اللبس والإيهام واستزلال العوام ، وتطريق الشبهات إلى أصول الدين ، وتعريض بعض كتاب الله ، تعالى ، لرجم الظنون (١) .

لقد كان مذهب السلف التنزيه والسكوت طلباً للسلامة ، أما الاستواء الحسى ، فزيادة لم تأثر عن السلف إنما فهمها الحشوية من أنفسهم وبعقولهم ، يقول ابن الزاغوني : « الاستواء مماسة وصفة لذاته والمراد به القعود! » (٢) . فهل هذا كلام يقبل في عقيدة التوحيد الصافي ؟!

فنفى الجسمية ونفى الاستواء الحسى ، وهو من مقتضيات الجسمية تناقض لا يجوز حتى على عوام الناس والسذج ، وأن نقبل قول أحدهم : « عرشه ما ملأه وأنه يقعد نبيه معه على العرش ! .. كلام نستغفر الله منه ، وهو على ما حكى يعنى صغر ذاته وحلولها في العرش . فالعجب من قول هذا : ما نحن مجسمة » (٣) .

جاء بعد ذلك ابن تيمية وتلميذ ابن القيم فناصرا دعوى الاستواء والعرشية والعلو ، فأثبتوها صفات لله ، عز وجل ، وزادوا على ذلك بأنها صفات على ظاهرها أى على المفهوم من المعنى الظاهر منها ، وبذلك في سبيل ذلك جهداً علمياً كبيراً فالف ابن تيمية « الرسالة العرشية ، والحموية » ، و« الأصفهانية » ، وابن القيم ألف « الصواعق المرسله » ومختصره ، وحكوا عن التابعين مقالات عجيبة محصلتها نصرة القول بالظاهر القريب ، ويرجع ذلك إلى أن ابن تيمية ولد ونشأ وتربى في بيئة ناصرت التجسيم والتشبيه فتشبع فكره بها ، كما أنه لا يستبعد تأثره بالفلسفة الوسيطة – والأفلوطونية الحديثة ، وكذلك مقالة المحدثين في ربهم من أمثال أبي يعلى وابن الزاغوني وأبي حامد وابن حشيش والملطى .. وكلهم حنابلة يأخذون بظاهر الحديث ولا ينظرون في فقهه ، ولذلك قالوا بالاستواء والجهة والعلو والفوقية والاستقرار على الحقيقة وجرى مجرى ابن خزيمة والدارمي ، وغيرهما من أصحاب التعصب للتشبيه

(١) الجويني : الإرشاد ، ص ٩٥ ، ٦٠ .

(٢) ابن الجوزي : مصدر سابق ، ص ٢١ .

(٣) ابن تيمية : العقيدة الواسطية ، ص ٣٩٥ . وغيرها .

فبلغ بهم أن قالوا : إن من لم يقل بأن الله ، عز وجل ، على عرشه فوق سبع سمواته ، فهو كافر بربه حلال الدم ..!»^(١)

ومذهب ابن تيمية في الصفات الخبرية في غاية الضعف وينصرف إلى التشبيه والتجسيم ، ولا معنى لقوله بلا تشبيه أو تمثيل أو تكييف ، لأنه أثبت بمقالته كل تشبيه وتمثيل وتكييف ، وهو يقول ذلك على سبيل الاحتراز أو التمويه وهو لا يجدى ، ولذلك أنصف الشيخ أبو زهرة في دراسته عنه حيث دعا إلى عدم الأخذ بطريقته في فهم المتشابه ، لأنها تفضي إلي توهم التشبيه والتجسيم وخصوصاً بالنسبة للعامة»^(٢).

وسنذكر من أقول السلف والعلماء ما تطمئن إليه قلوب وعقول المؤمنين الذين وصفهم الله بأولى بالألباب ، فهو الله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٣) يقول ابن العربي صاحب العواصم : فلما قال «الرحمن على العرش استوى» كان المطلوب هنا ثلاثة معان : معنى الرحمن ، ومعنى استوى ، ومعنى العرش .
فاما الرحمن فمعلوم لا خلاف فيه ولا كلام .

واما العرش فهو في العربية لمعانٍ فأيها تريدون ؟

ولفظ استوى معه ، محتمل لخمس عشرة معنى في اللغة فأيها تريدون ، أو أيها تدعون ظاهراً منها !؟

ولم قلت : إن العرش ها هنا المراد به مخلوق مخصوص ؟ فادعيتموه على العربية والشريعة ؟ ولم قلت : إن معنى استوى قعد أو جلس ، فتحكمون باتصاله به ، ثم تقولون إنه أكبر منه من غير ظاهر ، ولم يكن عظيماً بقدر جسمه حتى تقولوا إنه أكبر أجزاء منه ؛ ثم تحكمهم بأنه أكبر منه بأربع أصابع تحكّم لا معنى له^(٤) .

والمتقدمون من أهل السنة كانوا لا يفسرون الاستواء ، ولا يتكلمون فيه تهيّباً وتفويضا وكذلك التابعون قال الأوزاعي : كنا والتابعون متوفرون نقول : إن الله ،

(١) انظر الدرامي : الرد على الجهمية ، ص ٣٩٩ ، وابن القيم : الصواعق المرسله ٢ / ٣٧٩ .

(٢) أبو زهرة : ابن تيمية ، ص ٢١٢ ، دار الفكر . مصدر . ت .

(٣) سورة طه : آية ٥ .

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ١٤٥ .

تعالى ، ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته ، جل وعلا ، وسئل ربعة الرأي (ت ١٣٦هـ) : كيف مجهول ، والاستواء غير معقول ويجب علىّ وعليك الإيمان بذلك كله .

وفسرها ابن فورك بمعنى علا ، وهى صفة ذات (١) .

ويفسر القشيري الاستواء فيقول : الأكوان بقدرته استوت لأن الحق ، سبحانه ، بذاته ، على مخلوق ، استوى ، وأنى بذلك !..

والأحدية والصمدية حقه ، وما توهموه من جواز التخصيص بمكان ، فمحال ما توهموه ، إذ المكان به استوى ، لا الحق ، سبحانه ، على مكان بذاته استوى (٢) .

* * *

٢- المكان والجهة :

نفى أهل السنة والجماعة ومعهم جمهور المعتزلة والزيدية المكان والجهة ، وقالوا باستحالة ذلك (٣) ، وخالفهم فى ذلك جماعة من المشبهة والكرامية ، فقالوا هو فى جهة فوق ، وزادوا على ذلك ، فقالوا بأنه فى الجهة ككون الأجسام فيها ، وجوزوا عليه الحركة والانتقال والتبدل فى الجهات .

ولا شك أنهم فى ذلك يحاكون اليهود فى عقيدتهم عن ربهم ، وبالغوا فى التشبيه فقالوا بأنه تعالى محاذ للعرش غير مماس له بمسافة متناهية ، وفى ذلك تناقض ، إذ كيف يثبتون الجهة والجسمية ولا يثبتون ما يلزم عنها !

ثم ما معنى القول بمسافة غير متناهية بين الشئ وما يستقر عليه ، وهو فى غاية الاستحالة ، وخفف بعضهم من غلوائه فأثبت الجهة ونفى الجسمية (٤) . فما أدلتهم على ذلك !؟

قال المشبهة : لنا فى النص القرآنى شواهد نستدل بها ، منها قوله تعالى :

(١) البيهقى : الأسماء والصفات ، ص ٥٢٢ وما بعدها .

(٢) القشيري : مصدر سابق ١٤ / ٧٤ .

(٣) يحيى بن حمزة العلوي : تنزيه الخالق ، ص ١٠ وما بعدها . بتحقيقنا .

(٤) الإيجي : المواقف ؛ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ، (١) ، و ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢) ﴿ (٢) ،
﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٣) .

أما الأدلة العقلية التي يستدلون بها فهي أن إثبات الفوقية والجهة ضرورة عقلية ،
فالعقل يجزم بأن كل موجود فهو متحيز وفي جهة . واستخدموا الجدول والسبر
والتقسيم ، فقالوا بأن الله إما أن يكون داخل العالم أو خارج العالم بائن عنه ، أو لا
داخل العالم ولا خارجه ، وانتهوا من ذلك بضرورة أن يكون خارج العالم بائن عنه
على عرشه ، وكذلك قائم بذاته متحيز بذاته (٤) .

كما اعتبر المثبتة للجهة أنها من صفات الكمال ، واستدلوا على شرف الجهة
وتعيينها برفع العباد أيديهم نحو السماء عند الدعاء ، وكان معراج الرسول ، ﷺ ،
إلى جهة فوق ، وطلب فرعون من هامان وزيره أن يبني له الصرح ، لعلمه بأن الله في
السماء ، والجارية في الحديث أشارت إلى السماء كمكان يتعين أن يكون فيه ربها .

ويرى ابن تيمية أن الجهة والمكان ثابت لله ، عز وجل ، أما القرب والبعد فهو
بالعلم ، وينسب للسلف ذلك وأهل الحديث والصوفية ، أما القرب فالدلالة عليه
قرينة السياق ، ولذلك جاز عنده تأويل المعية والقرب أما الاستواء فلا ! ، وأجراها
على الظاهر من النص (٥) .

وعند استقراء كلام ابن تيمية يتبين لنا أن السلف أولوا بعض الصفات وذلك عندما
يجدون في النص ما يتشابه ويلتبس في أذهان العوام أو يوهم ظاهره بالجسمية ، فلا
يسعهم تأويل الصفة بما يتفق مع القطعيات من النصوص . ولذلك القول بأن السلف
جهلوا تفسير الصفات ، أو كان السكوت موقفاً ثابتاً لهم ومطلقاً والتسليم به ، قول
يحتاج للنظر .

ولم يعين أهل السنة الجهة ، وكذلك المعتزلة والجهمية أصحاب جهم بن
صفوان (٦) ، فلا وجه للقول بأن الله في السماء دون الأرض وغيرها ، والتنزيه يقتضى
عدم تعيين المكانية وفي النص ما يدل على ذلك .

(١) سورة طه : آية ٥ .
(٢) سورة الفجر : آية ٢٢ .
(٣) سورة فاطر : آية ١٠ .
(٤) الإيجي : مصدر سابق ، ص ٢٧٢ .
(٥) ابن تيمية : الأسماء والصفات من الفتاوى ١ / ١٤٠ .
(٦) الملطى : التنبيه والرد ، ص ٩٧ .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ (٢) .

أما من ناحية العقل فقد قالوا بأن تعيين الجهة يلزم منه إثبات المكان ، وهو ما لا تنفيه المشبهة ، وهو يوجب إثبات الجسمية ، كما أنه لو كان في السماء لخلت منه الأماكن الأخرى ، وكذلك ينفي عنه القرب ، والذي أوله المشبهة بالعلم من قبل .

ولو كان في السماء لما كانت السجدة تفيد قريباً منه ، كما أنه يلزم من الجهة التحيز والحدوث والزمانية وهو ما لا يجوز في الله ، تعالى ، ثم أيهما أولى تأويل آيات الاستواء والجهة أم آيات القرب والمعية (٣) ؟!

والله ، عز وجل ، عند أهل السنة قريب من خلقه بالعلم والقدرة والنصرة ويتنزه أن يكون قريباً من أحد أو بعيداً بذاته (٤) .

ماذا يؤدي القول بقدوم المكان أو حدوثه ؟ سواء كان قديماً أو حادثاً فاللازم من المقاليتين باطل ، ويستحيل على الله اتفاقاً ، وكما أنه لا قديم سوى الله ، تعالى ، فكذلك الله ليس قريباً للمحدثات . كما أن المتمكن محتاج إلى مكانة ، والمكان مستغن عن المتمكن ، والله هو الغنى .

كما يلزم التحيز في بعض الأحياز أو جميعها وكلاهما باطل ، أما الأول فلتساوى الأحياز ونسبته إليها ، فيكون اختصاصه ببعضها ترجيحاً بلا مرجح ، أو يلزم الاحتياج في تحيزه ، والذي لا تنفك ذاته عنه إلى الغير ، وأما الثاني : فيلزم تداخل المتحيزين وأنه محال بالضرورة .

كما يلزم مخالطته لقاذورات العالم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ويلزم من القول بالجهة القول بالجواهر الفرد ، وتعالى الله عن ذلك جملة وتفصيلاً ، فلا هو مركب من أجزاء ، ولا هو جزء لا يتجزأ ، ولا هو جسم محدث ، كما أنه لا حد له ولا نهاية . (٥)

(١) سورة الزخرف : آية ٨٤ .

(٢) سورة المجادلة : آية ٧ .

(٣) الشهرستاني : نهاية الإقدام ، ص ١٠٣ .

(٤) القشيري : اللطائف ١٤ / ١٥٦ .

(٥) انظر الرازي : الأربعين ، ص ١٥٢ ومابعداها .

لقد كانت الجهة منفكة بين من يثبت ومن ينفي الجهة لذلك ظل الجدل بينهما قائما : فمن عرف لفظ الجهة ، ومعنى لفظ الاختصاص فهم قطعاً استحالة الجهات على غير الجواهر والأعراض ، إذ الخير معقول ، وهو الذى اختص الجوهرية والأعراض ، إذ الحيز جهة إذا أضيف إلى شئ آخر متحيز ، فالجهات ست فوق وأسفل وقدام وخلف ويمين وشمال ..» (١) .

فهل تتمايز أو تتفاضل الجهات ؟ .. لا شرف لجهة على أخرى . وقد تباينت الجهات فى هذا العالم بحسب خلق الله له فى هذا الحيز . أما من يرى أن جهة فوق أفضل وأشرف ، وينسب لله الفوقية ، بحجة رفعا الأيدى بالدعاء نحو السماء فالرد عليه من جهتين .

١- يشبه الغزالي بمن يقول إن لم يكن الله ، تعالى ، فى الكعبة وهو بيته ، فما بالننا نحجه ونزوره ! .. وما بالننا نستقبله فى الصلاة ؟ .. وإن لم يكن فى الأرض فما بالننا نتدلل بوضع وجوهنا على الأرض فى السجود .

وفى رده على هؤلاء يقول : رفع الأيدى نحو السماء بالدعاء فيه سر لطيف ، وهو ربط العبد بمعانى التواضع والخضوع لله ، تعالى ، وإعلان صدق العبودية له ، ونجاته فى ذلك وفوزه برضا ربه . ويصل العبد إلى قمة التواضع بالسجود لله ووضع جبهته على الأرض والتراب ، وبه يتحول التواضع والعبودية إلى معانى قلبية خالصة .

أما إشارة العبد إلى السماء فدليل على علو الرتبة لا علو المكانة ، وتعظيم لمن أمره فى السماء موجود ، ومن الطبيعي أن يرفع العبد يده نحو السماء ، لأنها موضع خزائن النعم وطلاب الرزق يميلون بوجوههم نحو خزائنها ، فهذا هو محرك وجوه أرباب الدين إلى جهة السماء طبعاً وشرعاً ، ويعتقد العوام أن معبودهم فى السماء وهو أحد أسباب إشارتهم إليها (٢) .

أما حديث الجارية (٣) فقد قال أهل السنة بأنه كان استعلاماً عن منزلته وقدره ، ﷺ ، عندها وفى قلبها ، أما لماذا أشارت للسماء ؟ فقالوا بأنها كانت

(١) الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ٤٤ .

(٢) الغزالي : المصدر السابق ، ص ٤٤٧ .

(٣) رواه مسلم ١ / ٣٨١ ، ٣٨٢ رقم (٥٢٧) .

خرساء ، ولا سبيل للأخرس إلى تفهم علو المرتبة إلا بالإشارة إلى جهة العلو . وقد كان يظن بها أنها مشركة تعبد الأصنام ، فأفصحت عن سلامة معتقدها في ربها بالإشارة نحو السماء لا إلى بيوت الأصنام (١) .

وقد كان البيهقي يثبت الجهة ومع ذلك يأخذ بالتأويل ، ومهما يكن فمن يثبت الجهة يفضى إلى المحال في حق الله ، تعالى ، وكما قال القشيري : إن الأمر مجرد تقريب الخطاب لأذهان الناس وأفهامهم ، أما ما جاء من آيات يوهم ظاهرها بالتشبيه ، فيمكن حملها على معان أخرى يقبلها السياق وترضاها اللغة (٢) .

وإذا جاز في اللغة أن تكون الفوقية للمكان أو الرتبة ؟ فقد بطلت فوقية المكان في حقه ، تعالى ؛ لتقديس ذاته عن المكانية ، ولم يبق إلا فوقية الرتبة يقيناً (٣) .

* * *

٣- المعية:

ذهب جمهور السلف من المحدثين والفقهاء والصوفية والمتكلمين إلى تأويل المعية في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤) بالعلم والقدرة (٥) .

وابن قدامة (ت ٦٢٠ هـ) في رسالته « ذم التأويل » يذكر أن الضحاك ومالكا وسفيان الثوري وكثيراً من علماء السلف كانوا يؤلون قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ : أى هو معكم بعلمه (٦) . وكذلك قال البيهقي في الأسماء والصفات (٧) .

* * *

٤- الإتيان والمجيء:

قال الله عز وجل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (٨) وقال : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ (٩) قال القشيري : يعنى الملائكة جاءت بأمره ..

(٢) القشيري : مصدر سابق ٣ / ٦٩ .

(٤) سورة الحديد : آية ٤ .

(٦) ابن قدامة : ذم التأويل ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٨) سورة الفجر : آية ٢٢ .

(١) ابن فورك : مشكل الحديث ، ص ١٦٩ .

(٣) الغزالي : مصدر سابق ٤ ص ٥٠ .

(٥) د / الطبلاوى : التصوف فى تراث ابن تيمية ٤ ص ١٤٣ .

(٧) البيهقي : مصدر سابق ، ص ٥٤١ .

(٩) سورة النحل : آية ٢٦ .

أو يفعل الحق فعلاً فيسميه مجيئاً .

أما الآية الثانية فأولها بالعقوبة ، وقال : إن ما ذكره الله ، عز وجل ، هو على سبيل التوسع في الخطاب على عادة العرب (١) .

ويقول الجويني : ليس المقصود بالمجيئ الانتقال والزوال ، تعالى الله عن ذلك ، بل المقصود مجيئ أمر الله وقضاؤه الفصل وحكمه العدل .

ومن شائع الكلام التعبير عن الأمر بذي الأمر في إرادة التعظيم ، إذ يقال : إذا جاء الأمير بطل من سواه ، وليس الغرض انتقاله ، بل المراد اتصال نوافذ أوامره وزواجره .

وإذا كان للتأويل مجال رحب ، وللإمكان مجرى سهب ، فلا معنى لحمل الآية على ما يقتضى تثبيت دلالات الحدث ؛ وما يجب الاعتناء به معارضة الحشوية بآيات يوافقون على تأويلها ، حتى إذا سلكوا مسلك التأويل ، عورضوا بذلك السبيل فيما فيه التنازع (٢) .

ومما يدل على أن الإمام أحمد لم يعرف عقيدة التشبيه التي تفشت في أتباعه من بعده تأويله قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ (٣) بقوله : المراد به قدرته وأمره (٤) .

وقد أطل ابن فورك في تفسير الإتيان والمجيئ وتلخيصه فيما يلي :

١- أظهر الله فعلاً من جهته في البنيان سماه إتياناً ، ولله أن يسمي أفعاله بما شاء ، وأن يصف نفسه من ذلك بما أراد . وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية ، وهو تفسير بياني .

٢- جاء ربك : أى أمر ربك وحكمه .

٣- والإتيان فى قوله : إلا أن يأتيهم الله : أى بالعذاب .

٤- وفسر بعضهم : فى ظلل : أى بظلل ، وأن فى بمعنى الباء .

(١) القشيري : مصدر سابق ٢٤ / ٢٤ ، ٢٩٢ / ٣ ، ٧٢٧ .

(٢) الجويني : الإرشاد ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢١٠ .

(٤) ابن الجوزي : مصدر سابق ، ص ٢٧ .

وختم هذه المقالة بنص رائع يقرر فيه أنه لا ينبغي التفريق بين القرآن والسنة في تأويل النصوص وطريق التخريج فيها واحد ، وهو على حسب ما ورد في الكتاب ، فالقرآن هو العمدة والأصل في ذلك . وبما يليق بالله تعالى (١) .

٥-النزول،

جاء في الخبر عن النبي ، ﷺ ، أنه قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . ثم قال : « إن الله ، تعالى ، يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الأخير ينزل إلى هذه السماء الدنيا ، فينادي هل من مذنب يتوب ؟ .. هل من مستغفر ؟ .. هل من داع ؟ .. هل من سائل ؟ إلى الفجر » (٢) .

إن النزول في الحديث لا يعنى الانتقال ، والدليل على ذلك :

١- قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (٣) .

ومعلوم أن الجمل أو البقر ما نزل من السماء إلى الأرض على سبيل الانتقال . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (٤) . والانتقال على السكينة محال .

٢- ما المقصود من نزول الله من عرشه إلى السماء ؟ هل ليسمع نداؤه ؟ فالله ، تعالى ، يمكنه إسماع من يشاء دون نزول أو نقلة ، ومن ظن ما لا يليق بربه فقد انتقصه .

٣- معلوم أن السماء أكبر من الأرض ، وكل سماء أكبر من أختها ، والعرش موضع قدم الله ، فكيف يتم النزول للأكبر من مكانه للأصغر ، وكل هذا كلام لا يليق بالله ويعنى التجزئ والجسمية ، وهو باطل على الله .

٤- فكرة النزول مع تغير الوقت على أجزاء العالم تعنى أنه في الدنيا كل الوقت إلا أن يقال : إنه يستدير على ظهر الفلك (٥) !

(١) انظر ابن فورك : مشكل الحديث ، ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الزمر : آية ٦ .

(٤) سورة الفتح : آية ٢٦ .

(٥) انظر الرازي : أساس التقديس ، ص ١٤٤ ١٤٥ .

يقول ابن الجوزى : «إن الناس تجاه حديث النزول أحد رجلين متأول وسأكت مع اعتقاد التنزيه والواجب على الخلق اعتقاد التنزيه وامتناع تجويز النقلة» (١) .

إن المشبهة يثبتون النزول حركة ونقله من السماء إلى الأرض والعكس ، بما يلزم من ذلك الجسمية والحدوث ، والله منزّه عن ذلك ، ويقول الكوثرى معلقاً على أحاديث النزول : «إنما تدل على نزول ملك ينادى ، لحديث النسائي ، فتعين الإسناد المجازى الموافق للتنزيه . فياويح الحشوية ما أغباهم فى فهم المعانى فى اللسان العربى المبين» (٢) .

ولكن ابن تيمية أثبت نزولاً حقيقياً يليق بالله ، تعالى ، بلا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل ، ويلاحظ أن الجملة متناقضة فمن أين كان حقيقياً ثم هو بلا تكييف ؟ .. وكذلك قال ابن القيم ثم أبطل تأويل النزول من عشرة أوجه ، وبين أن مجيئه حقيقة ، وكذلك مجئ الملك حقيقى أيضاً (٣) .

والتساؤل الموجه لهذا الاتجاه ما معنى إثبات الشيء على حقيقته بلا إثبات لمقتضيات تلك الحقيقة ؟ وهل يجوز إثبات نقلة وجهة وتميز بلا إثبات التجسيم أو التشبيه ؟ .

نعم من أثبت الصفات من السلف ومنها النزول أثبته بلا نقلة ولا حركة وكانوا أوعى وأكبر من الانزلاق فى مهاوى التشبيه ، أو الجمع بين الشيء ونقيضه أو بين التشبيه والتنزيه فى وقت واحد ويزيدون إنكار الكيفية مجرد شكل فقط .

والحقيقة لم يترك ابن تيمية مجالاً ولا طريقاً إلا سلكه من أجل ترسيخ هذه العقيدة فى نفوس الناس ، وحاول الإقناع بذلك بشتى الطرق ، فهل وقف السلف موقفاً وسطاً بين التنزيه والتشبيه ؟! أم مال السلف لحساب التشبيه ميلة واحدة ؟!

للبخارى كتاب فى الرد على الجهمية ، وفيه يقول ما يذكره ابن تيمية فى شرح الأصفهانية (٤) : «لا نقول لهذه الصفات كيف ، وكما شاء أن ينزل ، وكما شاء أن

(١) ابن الجوزى : مصدر سابق ، ص ٤٤ .

(٢) الكوثرى : هامش التنبيه والرد ، ص ١٠٨ - ١١٣ .

(٣) ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة ، ص ٥٥٢ .

(٤) ابن تيمية : الأصفهانية ، ص ٢٨ .

يضحك فليس لنا أن نتوهم أن ينزل عن مكانه كيف وكيف ، وإذا قال لك الجهمي :
أنا كفرت برب ينزل ، فقل أنت : أنا أومن برب يفعل ما يشاء ، ويذكر عن ابن
المبارك : إن الله ينزل كيف يشاء» (١) .

ومع أن هذا النص يدل على عكس قصد ابن تيمية ففيه دليل واضح على التنزيه
والرد على النفاة ، إلا أن خطورة كلام الإمام ابن تيمية ، مع حسن مقاصده التي نسلم
بها ، هو قدرة مؤلفاته على الإقناع وشيوعها ، وفيها خير كثير ، وله تأثير كبير على
النفوس والعقول ، ولكن إثبات الصفات الخبرية الفعلية على ظاهره مع نفى التشبيه -
من غرائب كلامه ، فصار ما يتوهمه العقل غير ما يقرره ويتصوره !

وإذا كان أهل السنة قد اتخذوا موقفاً وسطاً ، فاثبتوا الصفات مع عدم التسليم
بالمعاني الدالة على التجسيم ومقتضياته ، فإن متأخرى الحنابلة تطرفوا فاثبتوها على
ظاهرها بما تحمله من تجسيم (٢) ، وقد وقع بسبب هذا الموقف محن وفتن في تاريخنا
الإسلامي ، ودننا لو لم تقع وسادت روح من السماحة بين الجميع ، ولكن يبدو أن
العوام يغالون في نصرة المذاهب ويتولون إثم إثارة الفتن ، لأن الأصل بين العلماء
الحسنى والود ، والجدل لا يخرج العلماء أبداً عن وقارهم .

وللنزول في اللغة معان منها ما يليق بالذات ، ومنها ما لا ينبغي تصوره ، مثال ذلك :

١- في اللغة يأتي النزول بمعنى النقلة والتحويل .

٢- أو بمعنى الإعلام أو القول والعبادة .

٣- أو الإقبال على الشيء أو بمعنى نزول الحكم .

وما يليق بذات الله من هذه المعاني أن يكون النزول بمعنى إقباله ، تعالى ، على أهل
الأرض بما فيه من الرحمة واللطف والعطف والتذكير والتنبيه (٣) .

وقد يكون عبارة عن فعل يظهره الله بأمره فيضاف إليه ، وهذا التأويل يكاد يكون
قاسماً مشتركاً بين الكثير من صفات الفعل التي أولها الأشاعرة (٤) .

(١) البخاري : خلق أفعال العباد ، ص ١٤ . بيروت ١٩٨٧ د . ت .

(٢) ابن تيمية : الاستقامة ، ١ / ٧٠ - ٧٦ .

(٣) الرازي : مصدر ساق ، ص ١٣٥ .

(٤) الجويني : الإرشاد ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٢) .

وجاء فى الخبر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ، ﷺ ؛ «إن الله ، عز وجل ؛ إذا أحب عبداً قال لجبريل ، عليه السلام ؛ إنى أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيقول جبريل ، عليه السلام ؛ لأهل السماء ؛ إن ربكم ، عز وجل ؛ يحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض ، وإذا بغض فمثل ذلك» (٣) .

وعن سمرة بن جندب أن النبى ، ﷺ ، قال : «ما من الكلام شئ أحب إلى الله ، عز وجل ؛ من الحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ؛ ولا إله إلا الله ، هن أربع فلا تكثر على ، لا يضرك بأيهن بدأت ، ولا تسمّ عبدك رياح ولا أفلح ولا نجح ولا يسار» (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ، ﷺ ؛ فذكر الحديث - قال : ثم قال نبى الله ، ﷺ ؛ «لا شج عبد القيس ؛ وإن فىك خصلتين يحبها الله ، عز وجل ؛ ورسوله ، الحلم والأناة» (٥) .

ذهب أهل السنة والجماعة إلى القول بأن المحبة من صفات الفعل ومنهم من قال إنها من صفات الإرادة .

١- فمن قال بأن المحبة والبغض والكرهية من صفات الفعل فسر ذلك بأن المحبة تاتى بمعنى المدح له بإكرام مكتسبه ، والبغض والكرهية بمعنى الذم له بإهانة مكتسبه ، والمدح والذم قوله ، وقوله كلامه ، وكلامه من صفات ذاته .

٢- أما الإمام أبو الحسن الأشعري فأرجع المحبة والبغض إلى الإرادة ، فمحبة الله المؤمنين ترجع إلى إرادته إكرامهم وتوفيقهم ، وبغضه غيرهم ، أما ذمه فعل من ذم

(١) سورة المائدة : آية ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٣٠ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم .

فعله ، فيرجع إلى إرادته إهانتهم وخذلانهم ، ومحبته الخصال المحمودة يرجع إلى إرادته إكرامه مكتسبها ، وبغضه الخصال المذمومة يرجع إلى إرادته إهانتها مكتسبها^(١) .

ولا يجوز وصفه ، تعالى ، بالعشق ، لأنه مجاوزة الحد في المحبة ، ولا يوصف تعالى بمجاوزه الحد . كما لا يوصف العبد بأنه عاشق لله يقول القشيري : « لو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد ، لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق ، سبحانه ، فلا يقال : إن عبداً جاوز الحد في محبة الله ، فلا يوصف الحق ، سبحانه ؛ بأنه يعشق ، ولا العبد في صفته ، سبحانه ، بأنه يعشق »^(٢) .

ويرجع عدم جواز إطلاق صفة العشق على الله ، عز وجل ، من قبل أهل السنة وغيرهم كالمعتزلة ، إلى أنها صفة تقتضى التشبيه والحلول ، وهو مستحيل على الله ، عز وجل .

وابن حزم الظاهري يذهب لذلك الرأي^(٣) ، وهو صحيح لأن العشق من ناحية يقوم بتشبيه الخالق بأفعال خلقه ، ومن الناحية العملية يقوم على الملامسة والحلول ، وهو ليس كمثلته شيء ، واحد متفرد بالصمدية والوحدانية المطلقة فلا يحتاج لشيء فيلامسه أو يحل فيه شيء أو يحل في شيء فيبشره ؛ وهو لفظ بدأ في بيئة التصوف الفلسفي الغالي ، وتجلت أقصى درجاته عند الحلاج والسهروردي المقتول وجهلة الصوفية .

* * *

٧- الرحمة :

قال تعالى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾^(٥) .

(١) انظر البيهقي : الأسماء والصفات ، ص ٦٣٧ ، وقارن الأشعري : الإبانة ، ص ١٢٠ - ١٣٢ .

(٢) القشيري : الرسالة القشيرية ، ٢ / ٦١٢ .

(٣) انظر ابن حزم : الفصل ، ٢ / ٣٤٢ .

(٤) سورة الاعراف : آية ١٥٦ .

(٥) سورة الانعام : آية ١٣٣ .

وقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨) ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (٣) وقد جاءت صفة الرحمة في كتاب الله معرفة ونكرة ومضافة إلى لفظ الجلالة وإلى الضمير العائد على الذات ، ومضاف إليها ، وذلك في مواضع كثيرة .

وهي صفة أزلية قديمة وتفسير بمعنى إرادة الله رحمة عباده بإرادة الإنعام والإحسان إليهم ، وهو من ضروب التفسير البياني فتسمى النعمة رحمة مجازاً ، والرحمة من صفات الذات .

ولكن إذا تعلقَت الرحمة بأوصافها فهي من صفات الفعل . يقول القشيري :
« يجب على العبد أن يفر من فعله الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته ، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته ومن نفسه حيث قال : ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٤) إلى نفسه حيث قال : ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٥) .

* * *

٨- الفيرة:

جاء في الخبر عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ، ﷺ :
« ما أحد أغير من الله ، تعالى ، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ، ﷺ ، حدثهم فقال : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيره الله ، تعالى ، أن يأتي العبد المؤمن ما حرم الله عليه » (٧) .

(١) سورة البقرة : آية ٢١٨ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٤ .

(٤) سورة آل عمران : آية ٢٨ .

(٥) سورة الذاريات : آية ٥٠ وانظر القشيري : شرح أسماء الله الحسنى ؛ ص ٣٧٥ .

(٦) رواه البخاري ١٢٤ / ١٨١ حديث رقم (٦٨٤٦) .

(٧) متفق عليه ، رواه البخاري ٨ / ١٥٢ ، ومسلم ١٠٤ / ١٣١ .

الغيرة عدم الرضا ، والله يغار من مشاركة غيره معه : الغيرة كراهية مشاركة الغير معه فيما هو حق له ، تعالى ، من طاعة عبد له . (١)

وقال أبو نصر بن قتادة فى قوله ، ﷺ : « ما أحد أغير من الله » أى : أجزر من الله ، والغيرة من الله الجزر ، والله غير بمعنى زجور ، يجزر عن المعاصى » (٢) .

* * *

٩- الرضا والغضب :

جاء فى القرآن قول الله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٩) (٣) .

وقال : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ (٤) .

وجاء فى الخبر عن أبى هريرة أن رسول الله ، ﷺ ؛ قال : « إن الله ، عز وجل ؛ يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تناصحوا من ولى أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » (٥) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس ، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس » (٦) .

وأهل السنة يقولون فى الرضا والغضب أنهما من صفات الأفعال لتعلقهما بصفاتهما ، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري هما من متعلقات الإرادة ، فالرضا إرادته ، تعالى ، لإكرام المؤمنين وإثباتهم على التأييد ، والسخط أو الغضب إرادته تعذيب الكفار وعقوبتهم على التأييد ، وإرادته تعذيب الكفار وعقوبتهم على التأييد ، وإرادته تعذيب فساق المسلمين إلى ما شاء الله (٧) .

(١) القشيري : الرسالة ٢ / ٥١٢ .

(٢) البيهقي : الأسماء والصفات ؛ ص ٦١٠ .

(٣) سورة المائدة : آية ١١٩ .

(٤) سورة المجادلة : آية ٢٢ .

(٥) رواه مسلم .

(٦) ذكره السيوطي فى الجامع الصغير ؛ ٢ / ١٦٢ ، وعزاه للترمذى ، ولابى نعيم فى الحلية .

(٧) البيهقي : مصدر سابق ، ص ٦٤١ .

وبعد لعلنا قد وفيينا قضية التنزيه فى الصفات الخبرية ، الذاتية والفعلية ، على مذهب أهل السنة حقها ، فقد أحسنوا بتأويل الصفات وحملها على معانيها اللائقة بها ، فاللغة مجازية ، وحمالة أوجه ، ودلالات الألفاظ كثيرة والحكم فى كل ذلك سياق الكلام ومنهج القرآن فى التنزيه ولا يلتفت لمن يشبه أو ينكر الحق جدلاً بالباطل ، وكذلك لمن يتوقف حيرة ، أو لقصور فى قدراته أو من أجل السلامة .

لقد اتسم منهج أهل السنة فى الصفات بالوسطية والاعتدال والمرونة أيضاً ، فقد أثبت الصفات وفسرها بأولى معانيها وأليقها وأحقها وصفاً بالذات المقدسة ، وجاهدوا جهاداً مجيداً ضد تيارات التشويه العقائدى من المجسمة والمشبهة الغلاة وأتباعهم ، وتحملوا تبعات الحوار والجدل ، وتصحيح عقائد العوام ، إذ العوام لا عقول لها فى أغلب الأحيان ويحبون الظهور والجدل بالباطل والانتصار على العلماء وإن ضاع الحق ، وضلوا هم أنفسهم .

يقول القرطبى المفسر (ت ٦٧١ هـ) : « الأكثرون من المتقدمين والمتأخرين ، أنه إذا وجب تنزيه البارى ، سبحانه ، عن الجهة والتحييز ، فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدمين ، وقادتهم من المتأخرين : تنزيهه تبارك وتعالى ، عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ، لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون فى مكان أو حيز ، ويلزم على المكان والحيز ؛ الحركة والسكون للمتحييز ، والتغير والحدوث ، ثم يقول ، رحمه الله تعالى : « قلت : فعلم الله ، تعالى ، وارتفاعه : عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته » (١) . وهكذا أردت ختام هذا البحث بهذه العبارة الصريحة من إمام المفسرين فى عصره ليطمئن المسلمون على عقيدتهم فى ربهم وتنزيهه من كل شرك أو مثيل أو شبيه ، وتبقى عقائدهم نقية صافية كما أرادها الله أن تكون .

* * *

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن .